

الإمام الجنيد البغدادي



الدرس
9

أهداف الدرس

1. أن أتعرف سيرة الإمام الجنيد وطريقته في التصوف .
2. أن أدرك أسباب اختيار المغاربة لطريقة الإمام الجنيد في التصوف .
3. أن أتمثل منهجه في العلم والعمل .

تمهيد

مما يعين على سلوك طريق العبودية وجود دليل يرشد، وشيخ يربي ويعلم، وقد من الله على هذه الأمة بورثة الأنبياء المبلغين رسالة الله تزكية وتعليما، ورثوا العلم والحكمة، وعزفوا بنفوسهم عن الدنيا، وصدقوا في مجاهداتهم، وأناروا الحياة بعلومهم ومعارفهم، ومنهم سيد الطائفة العارف بالله الإمام الجنيد البغدادي رحمه الله.

فمن هو الإمام الجنيد؟ وما هي طريقته في التصوف؟ وما مميزاتها؟ ولما ذا اختارها المغاربة؟

نص الانطلاق

قال الإمام الخطيب البغدادي معرفا بالإمام الجنيد -رحمهما الله-: «الجنيد بن مُحَمَّد بن الجنيد أَبُو الْقَاسِمِ «الخرّاز» ويقال «القواريري» وقيل: كان أبوه قواريريا، وكان هو خرازا، وأصله من «نهاوند» إلا أن مولده ومنشأه ببغداد، وسمع بها الحديث، ولقي العلماء، ودرس الفقه على أَبِي ثور، وصحب جماعة من الصالحين، واشتهر منهم بصحبة الحارث المحاسبي، وسري السقطي. ثم اشتغل بالعبادة ولازمها حتى علت سنه، وصار شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وطريقة الوعظ، وله أخبار مشهورة، وكرامات ماثورة...، قد سمع الحديث الكثير من الشيوخ، وشاهد الصالحين وأهل المعرفة، ورزق من الذكاء وصواب الجوابات في فنون العلم ما لم ير في زمانه مثله عند أحد من قرنائهم، ولا ممن هو أرفع سنا منه، ممن كان ينسب منهم إلى العلم الباطن والعلم

الظاهر، في عفاف وعزوف عن الدنيا وأبنائها... ، قال الجنيد: ما أخرج الله إلى الأرض علما وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لي فيه حذا ونصييا... ، وكان يقول: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلِمًا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ أَشْرَفَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ مَعَ أَصْحَابِنَا وَإِخْوَانِنَا لَسَعَيْتُ إِلَيْهِ وَقَصَدْتُهُ... ، قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْكَعْبِي: رَأَيْتُ لَكُمْ شَيْخًا بِبَغْدَادَ، يُقَالُ لَهُ: الْجَنِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، مَا رَأَتْ عَيْنَايَ مِثْلَهُ، كَانَ الْكَتَبَةُ يَحْضُرُونَهُ لِأَلْفَاظِهِ، وَالْفَلَّاسَةُ يَحْضُرُونَهُ لِدَقَّةِ مَعَانِيهِ، وَالْمُتَكَلِّمُونَ يَحْضُرُونَهُ لِرِزَامِ عِلْمِهِ، وَكَلَامِهِ بَائِنٌ عَنْ فَهْمِهِمْ وَعِلْمِهِمْ...

قال جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَلْدِيُّ: لَمْ نَرِ فِي شَيْوْخِنَا مِنْ اجْتَمَعَ لَهُ عِلْمٌ وَحَالٌ غَيْرُ أَبِي الْقَاسِمِ الْجَنِيدِ، وَإِلَّا فَأَكْثَرُهُمْ كَانَ يَكُونُ لِأَحَدِهِمْ عِلْمٌ كَثِيرٌ وَلَا يَكُونُ لَهُ حَالٌ، وَآخِرُ يَكُونُ لَهُ حَالٌ كَثِيرٌ وَعِلْمٌ يَسِيرٌ، وَأَبُو الْقَاسِمِ الْجَنِيدُ كَانَتْ لَهُ حَالٌ خَطِيرَةٌ، وَعِلْمٌ غَزِيرٌ، فَإِذَا رَأَيْتَ حَالَهُ رَجَحَتْهُ عَلَى عِلْمِهِ، وَإِذَا رَأَيْتَ عِلْمَهُ رَجَحَتْهُ عَلَى حَالِهِ». [تاريخ بغداد، 168/8 بتصرف].

الفهم

الشرح:

- **القواريري:** والد الجنيد كان يبيع «الزجاج» لذلك قيل له «القواريري».
- **الصالحون:** من صلحت أعمالهم الظاهرة واستقامت أحوالهم الباطنة.
- **المعرفة** (عند الصوفية): شهود دائم بقلب هائم، فلا يشهد إلا مولاه.
- **استخلاص المضامين:** - أستخلص من النص بعض الصفات التي عُرف بها الإمام الجنيد - رحمه الله - .

التحليل

أولا: ترجمة الإمام الجنيد

هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، ثم البغدادي، القواريري، والده الخزاز. ولد: سنة نيف وعشرين ومائتين. [سير أعلام النبلاء، 66/14]. شيخ الصوفية، صُحِبَ الحارث المحاسبي وأتقن العلم، ثم أقبل على شأنه، وتعبد، ونطق بالحكمة، وقل ما روى، لم يُر في زمانه مثله في عفة

وعزوف عن الدنيا، ذاعت شهرته ببغداد، وقالوا عنه «سيد الطائفة» وهو «المُرَبِّي بفنون العلم، المؤيّد بعيون الحلم، المُنوّر بخالص الإيقان وثابت الإيمان، العالم بمُودع الكتاب، والعامل بحلم الخطاب، الموافق فيه للبيان والصواب...» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 255/10] عُرف عنه أنه «أتقن العلم، ثم أقبل على شبابه، واشتغل بما خُلِقَ له، وحدث بشيء يسير» [تاريخ الإسلام، 118/22].

شيوخه:

تلقى الإمام الجنيد العلم والتربية عن أئمة وعلماء «وتفقه على أبي ثور، وسمع من: الحسن بن عرفة، وغيره. واختصّ بصُحبة السريّ السَّقَطيّ، وأبي حمزة البغدادي» [تاريخ الإسلام، 118/22] وقد ذُكر عنه أنه «كان في أول أمره يتفقه على مذهب أصحاب الحديث، مثل: أبي عبيد، وأبي ثور، فأحكم الأصول، وصحب الحارث بن أسد المحاسبي، وخاله السري بن مغلس، فسلك مسلكهما في التحقيق بالعلم واستعماله» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 258/10]. قال العلامة ابن الأثير عنه «أخذ الفقه عن أبي ثور صاحب الشافعي، والتصوف عن سري السقطي» [الكامل في التاريخ، لابن الأثير 656/4] وله شيوخ آخرون، منهم «أبو جعفر القصاب» و«أبو جعفر الكرني» و«أبو يزيد البسطامي».

قيل للجنيد من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: «من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة - وأوماً إلى درجة في داره -» [الرسالة القشيرية، ص 79].

أقرانه: من مشايخ التصوف الكبار الذي يعدون من أقران الإمام الجنيد «ذو النون المصري» و«سهل التستري» و«يحيى بن معاذ الرازي».

آثاره وتلاميذه: للإمام الجنيد آثار تربوية وتعليمية؛ فقد تعلم وأخذ وتزكى على يديه خلق كثير، وتُنسب إليه مجموعة من الكتب والرسائل، ومنها «القصد إلى الله» و«السر في أنفاس الصوفية» و«دواء الأرواح» و«دواء التفريط» و«كتاب الفناء» و«كتاب الميثاق» و«أدب المفتقر إلى الله». خلف الإمام الجنيد ورثة علم وتركية من العلماء الربانيين، منهم: «أبو محمد الجريري» و«أبو بكر الواسطي» و«أبو العباس بن سريج» و«ابن نجيد السلمي» و«جعفر الخُلدي» و«أبو بكر الشبلي» و«محمد بن علي بن حُبَيْش»، و«عبد الواحد بن علوان» وطائفة من الصُوفية. [تاريخ الإسلام، 118/22].

وفاته: كانت وفاته سنة 298هـ وقيل سنة 297هـ (ورجح الإمام الذهبي التاريخ الأول) ودفن في «الشونيزية» مقبرة بالجانب الغربي ببغداد، دُفن فيها جماعة من الصالحين.

[سير أعلام النبلاء، للذهبي 71/14].



ثانياً: ثناء العلماء على الإمام الجنيد

أطبق أرباب التراجم على الثناء على الإمام الجنيد، وعلى فضله وزهده، وأنه من الأئمة العارفين، ومن ذلك ما حلاه به هؤلاء الأئمة الأعلام:

قال الذهبي «رحمة الله على الجنيد، وأين مثل الجنيد في علمه وحاله؟» [سير أعلام النبلاء، 69/14]، وقال عنه أيضاً «كان شيخ العارفين وقُدوة السائرين وعَلَمَ الأولياء في زمانه» [تاريخ الإسلام، 118/22]. وقال عنه الإمام تاج الدين السبكي: «سيد الطائفة ومُقدِّم الجماعة وإمام أهل الخرقة، وشيخ طريقة التصوف، وعَلَمَ الأولياء في زمانه» [طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، 260/2] ووصفه ابن الأثير بقوله «إمام الدنيا في زمانه» [الكامل في التاريخ، لابن الأثير 656/4].

ثالثاً: طريقة الإمام الجنيد في التصوف

طريقة الإمام الجنيد في التصوف مقيدة بالكتاب والسنة، وكان يقول «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر (التصوف) لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» [الرسالة القشيرية، ص 80]. ونُقل عنه قوله «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول واتبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 258/10] وقوله «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة» وقوله «علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ»، فلا غرو أن تتسم طريقة الجنيد بالسلوك والأخلاق والعمل اتباعاً لمن وصفه الله عز وجل بقوله ﴿وَإِنَّا لَعَلُّ خُلُوعِ عِزِّهِمْ﴾ [القلم: 4].

رابعاً: مميزات طريقة «الجنيد السالك» وأسباب اختيار المغاربة طريقته في التصوف

قد علمت مما سبق فضل الإمام الجنيد ومقامه وما شهد له به أهل الفضل والرسوخ من: علم، وفضل، وحال، وحري بمن كان ذلك حاله أن يكون محل اقتداء، وسبيل اهتداء، قال الإمام تاج الدين السبكي -رحمه الله- «وإن طريق الشيخ الجنيد وصحبه طريق مقوم» [تشنيف المسامع بجمع الجوامع، 856/4]. وقد اكتسبت طريقته هذه المنزلة الرفيعة بما اشتملت عليه من خصائص ومميزات، جعلتها محل عناية ورعاية واتباع، منها:

- **اتباع الشريعة**، فطريقة الإمام الجنيد قائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأثر عن الإمام الجنيد أنه كان يقول: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث

ولم يتفقه لا يقتدى به» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 258/10]. فهذا تنصيب صريح منه بأصل وأساس منهجه، وهو أعلم وأعرف به من غيره، وعلى ذلك أسس بنيانه وطريقته.

- العلم والعمل، وقد جمع بينهما دعوة وسلوكا، وهو كما وصفه الإمام الذهبي «برز في العلم والعمل» [تاريخ الإسلام، 118/22] وقد أنكر الإمام الجنيد على من زعم إسقاط الأعمال عن الواصلين، ادعاء منهم أنه من البر والتقرب، فقال «إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا؛ فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها» [الرسالة القشيرية، ص 79].

- موافقة السر العلانية، وذلك بموافقة الظاهر الباطن، ومطابقة الحال المقال، قال جعفر بن محمد الخلامي: «لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير أبي القاسم الجنيد، وإلا فأكثرهم كان يكون لأحدهم علم كثير ولا يكون له حال، وآخر يكون له حال كثير وعلم يسير، وأبو القاسم الجنيد كانت له حال خطيرة، وعلم غزير، فإذا رأيت حاله رجحته على علمه، وإذا رأيت علمه رجحته على حاله». [تاريخ بغداد، 168/8].

- صفاء القلب ومداومة الذكر، بحيث لا ينقطع عن الله لحظة ولا يغفل عنه فترة، بل يبقى متبتلا راجيا، وعلى قدر صفاء الوصل يكون الوصول، وكان الإمام الجنيد يقول: «اعلم أنه إذا عظمت فيك المعرفة بالله وامتلاً من ذلك قلبك، وانشرح بالانقطاع إليه صدرك، وصفا لذكره فؤادك، واتصل بالله فهمك ذهبت آثارك وامتُحيت رسومك واستضاءت بالله علومك فعند ذلك يبدو علم الحق» [حلية الأولياء، 281/10].

- ترك المألوفات والزهد في الدنيا، بمنهج وسط لا إفراط فيه ولا تفريط، وفي ذلك قال: «ما أخذنا التصوف عن القائل والقليل لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسّنات؛ لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله، وأصله التعزف عن الدنيا، كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهارتي». [تاريخ بغداد، 168/8]. قال الإمام الذهبي -معلقا على هذا القول-: «هذا حسن، ومراده: قطع أكثر المألوفات، وترك فضول الدنيا، وجوع بلا إفراط، أما من بالغ في الجوع - كما يفعله الرهبان - ورفض سائر الدنيا ومألوفات النفس من الغذاء والنوم والأهل فقد عرض نفسه لبلاء عريض، وربما خولط في عقله، وفاته بذلك كثير من الحنيفية السمحة، وقد جعل الله لكل شيء قدرا. والسعادة في متابعة السنن، فزن الأمور بالعدل، وصم وأفطر، ونم وقم، والزم الورع في القوت، وارض بما قسم الله لك، واصمت إلا من خير، فرحمة الله على الجنيد، وأين مثل الجنيد في علمه وحاله؟» [سير أعلام النبلاء، 69/14].



– **تبسيط العبارة ووضوح العلاقة**، من خلال تبسيط أمور الدين وتقريب معانيها للعامة، والبعد عن المسائل التجريدية والنظريات الفلسفية، والحرص على التعبد والافتداء، فطريقه الإمام الجنيد كما وُصف صاحبها «كان كلامه بالنصوص مربوطا وبيانه بالأدلة مبسوطا، فاق أشكاله بالبيان الشافي واعتناقه للمنهج الكافي ولزومه للعمل الوافي» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 283/10]

– **تزكية النفس ومحاسبتها**، وذلك بالانشغال بالطاعة والعبادة والرقى بالنفس في مدارج السير إلى الله رغبا ورهبا بلسان المقال والحال، وذكر عن الإمام الجنيد أنه «اشتغل بالعبادة ولازمها حتى علت سنه، وصار شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وطريقة الوعظ، وله أخبار مشهورة، وكرامات ماثورة» [تاريخ بغداد، 168/8].

– **علم الموهبة**، وهو علم يؤتى لمن صدق في السير إلى الله، فيصطفيه الله بالحكمة، ويفتح عليه المعارف، وفي ذلك قال الإمام الجنيد -رحمه الله-: «واعلم أن المؤهلين للرعاية إلى سبيل الهداية والمرادين لمنافع الخليفة والمرتبين للنذارة والبشارة أيّدوا بالتمكين، وأسعدوا براسخ علم اليقين، وكشف لهم عن غوامض معالم الدين، وفتح لهم في فهم الكتاب المستبين، فبلغوا ما أنعم به عليهم من فضله، وجاد به من عظيم أمره إحكام ما به أمروا، والمسارة إلى ما إليه ندبوا، والدعاية إلى الله بما به مكنوا، وهذه سيرة الأنبياء صلوات الله عليهم، فيمن بعثوا إليهم من الأمم، وسيرتهم في تأدية ما علموه من الحكم، وسيرة المتبعين لآثارهم من الأولياء والصديقين وسائر الدعاة إلى الله من صالحى المؤمنين» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 283/10]

– **التعاون الاجتماعي**، فلا انزواء ولا فرار من المشكلات الاجتماعية، بل تعاون وانخراط في الحياة وتحمل للمسؤولية ومقتضى العمارة والإصلاح، قال الإمام الجنيد رحمه الله «أفضل الخلق عند الله منزلة وأعظمهم درجة في كل وقت وزمن وفي كل محل ووطن أحسنهم إحكاما لما عليه في نفسه، وأسبقهم بالمسارة إلى الله فيما يحبه، وأنفعهم بعد ذلك لعباده فخذ بالحظ الموفر لنفسك وكن عاطفا بالمنافع على غيرك، واعلم أنك لن تجد سبيلا تسلكه إلى غيرك وعليك بقية مفترضة من حالك» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 283/10].

خامسا: من أقوال الإمام الجنيد

كلام الإمام الجنيد وحكمه مبنوثة في مؤلفات أصحاب الطريقة، وفي الكتب التي ترجمت له، ومضمنة فيما جُمع من رسائله، ومن أقواله «عليكم بحفظ الهمة؛ فإن حفظ الهمة مقدمة الأشياء». وسأله رجل: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: «توبة تحل الإصرار، وخوف يزيل الغرة، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات ومراقبة الله في خواطر القلوب». وقوله «إن للعلم ثمنا فلا



تعطوه حتى تأخذوا ثمنه، قيل له: وما ثمنه؟ قال: وضعه عند من يحسن حمله ولا يضيعه»
[الطبقات الكبرى، للشعراني، 124/3].

التقويم

1. ألخص حياة الإمام الجنيد رحمه الله.
2. أبين أسباب اختيار المغاربة لطريقة الإمام الجنيد في التصوف.
3. أصنف في خطاطة مميزات طريقة الإمام الجنيد في التصوف

الاستثمار

من وصايا الإمام الجنيد رحمه الله أنه كتب إلى بعض إخوانه قائلاً: «أوصيك بترك الالتفات إلى كل حال ماضية؛ فإن الالتفات إلى ما مضى شغل عما يأتي من الحالة الكائنة، وأوصيك بترك الملاحظة للحال الكائنة وبترك المنازلة لها بجولان الهمة لملتقى المستقبل من الوقت الوارد بذكر مورده، ونسق ذكر موجوده فإنك إذا كنت هكذا كنت تذكر من هو أولى ولا تضرك رؤية الأشياء، وأوصيك بتجريد الهم وتفريد الذكر ومخالصة الرب بذلك كله، واعمل على تخلص همك من همك لهمك، واطلب الخالص من ذكر الله جل ثناؤه بقلبك، وكن حيث يراك لما يراك ولا تكن حيث يراد لك لما تريد لنفسك، واعمل على محو شاهدك من شاهدك حتى يكون الشاهد عليك شاهداً لك بما يخلص من شاهدك . . . ، وإذا بليت بمعاشرة طائفة من الناس فعاشرهم على مقادير أماكنهم، وكن مشرفاً عليهم بجميل ما آتاك الله وفضلك

به». [حلية الأولياء، 280/10]

أتأمل هذه الوصية، وأستخلص منها مقومات السعادة النفسية.

الإعداد القبلي

أبحث في كتب التراجم عن رحلة الإمام الغزالي وتجربته الصوفية.